مجلة جامعة دمشق للعلوم القانونية

اسم المقال: الداروينية الثقافية "الميمات"
اسم الكاتب: عمر وردة، د. حسان القاري
رابط ثابت: https://political-encyclopedia.org/index.php/library/10242
تاريخ الاسترداد: 2026/11/01 06:41 +03

الموسوعة السياسيّة هي مبادرة أكاديمية غير هادفة للربح، تساعد الباحثين والطلاب على الوصول واستخدام وبناء مجموعات أوسع من المحتوى العلمي العربي في مجال علم السياسة واستخدامها في الأرشيف الرقمي الموثوق به لإغناء المحتوى العربي على الإنترنت.
لمزيد من المعلومات حول الموسوعة السياسيّة – Encyclopedia Political، يرجى التواصل على info@political-encyclopedia.org

استخدامكم لأرشيف مكتبة الموسوعة السياسيّة – Encyclopedia Political يعني موافقتك على شروط وأحكام الاستخدام المتاحة على الموقع https://political-encyclopedia.org/terms-of-use

تم الحصول على هذا المقال من موقع مجلة جامعة دمشق للعلوم القانونية ورفده في مكتبة الموسوعة السياسيّة مستوفياً شروط حقوق الملكية الفكريّة ومتطلبات رخصة المشاع الإبداعي التي ينضوي المقال تحتها.

مجلة جامعة دمشق للعلوم القانونية
المجلد 3(2)2023: 50-71

Damascus University Journal of Legal Sciences
Vol 3 (2)- 2023: 50-71

الداروينية الثقافية "الميمات"

عمر وردة[1]، د. حسان القاري[2]

1. طالب دراسات عليا (دكتوراه)، قسم العقائد والأديان، كلية الشريعة، جامعة دمشق
2. أستاذ مساعد، قسم العقائد والأديان، كلية الشريعة، جامعة دمشق

الملخص:

تمثل فكرة الميمات محاولة لتوسيع تطبيق النظرية التطورية على الثقافة الإنسانية، وتعد نموذجا لتحول الداروينية من نظرية علمية إلى نظرة عالمية ورؤية شاملة للواقع.

وهذه الدراسة تسلط الضوء على محاولة تفسير التطور الثقافي من منظور داروينيي، من خلال مفهوم محدَّد للمكرَّر الثقافي، وبالتالي محاولة ربط دوكينز[1] فكرته عن "الميم"[2] بقضايا الاعتقاد الديني، بحجة أن الأديان هي أساساً "طفيليات ذهنية"، وأن الإيمان بالله هو "معلومات تكرّر نفسها بنفسها"، حيث "تقفز بشكل مُعدي من عقل إلى عقل".

وهي فكرة يجدها دوكينز جذابة أكاديمياً ومُنَفِّرة بشرياً، وقد برزت بشكل لافت في الكتابات الإلحادية الشعبية الحديثة.

إلا أن البرهان العلمي يؤكد أن مثل هذه الكيانات لا دليل عليها، وأنها عبارة عن بُنى افتراضية، تم استنتاجها من الملاحظة بدلاً

تاريخ الايداع 2021/9/30
تاريخ القبول 2022/1/3

حقوق النشر: جامعة دمشق سورية، يحتفظ المؤلفون بحقوق النشر بموجب **CC BY-NC-SA**

[1] كلينتون ريتشارد دوكينز: عالم سلوك حيوان وأحياء تطورية ومؤلف بريطاني، كان أستاذ الفهم العام للعلوم في أكسفورد بين 1995-2008م، برز عام 1976م عندما نشر كتابه "الجين الأناني"، الذي أشاع وجهة نظر ارتكاز التطور على الجينات، وقام بصياغة مصطلح الميم. انظر إله دوكينز وهو كتاب قيد الترجمة للباحث.

[2] يُقصد به المكرَّر الثقافي، وهو ما سيتضح لا حقاً.

من ملاحظتها في حد ذاتها؛ فضلاً عن عدم إمكان ملاحظتها؛ فهي عديمة الفائدة على المستوى التفسيري.

الكلمات المفتاحية: الداروينية، الثقافة، الإيمان، الميمات

Cultural Darwinism "memes"

Omar Warda[1] ، Dr. Hassan Al-Qari[2]

1. Postgraduate student (PhD), Department of Beliefs and Religions, College of Sharia, Damascus University
2. Assistant Professor, Department of Beliefs and Religions, College of Sharia, Damascus University

Abstract

The idea of memes represents an attempt to extend the application of evolutionary theory to human culture, and it is a model for the transformation of Darwinism from a scientific theory to a worldview and a comprehensive vision of reality.

This study sheds light on an attempt to explain cultural development from a Darwinian perspective, through a specific concept of the cultural repetition, and thus an attempt to link Dawkins 'idea of' meme 'with issues of religious belief, arguing that religions are essentially' mental parasites ', and that belief in God is' information that is repeated. Itself 'by itself', as 'it jumps contagiously from mind to mind'. An idea Dawkins finds both academically attractive and human repulsive, and has figured prominently in recent popular atheistic writings.

However, scientific evidence confirms that such entities have no evidence, and that they are hypothetical structures that were deduced from observation rather than observed per se. As well as being unnoticed; They are useless at the explanatory level.

Keywords: Darwinism, Cultural, faith, memes.

Received: 30/9/2021
Accepted: 3/1/2022

Copyright: Damascus University- Syria, The authors retain the copyright under a

CC BY- NC-SA

المقدمة :

اقترح عدد من الأكاديميين البارزين في السنوات الماضية، بأننا على أعتاب فترة سيجري فيها تطبيق النظرية التطورية، على كل مجال من مجالات البحث التي يمكن تصوُّرها، ومن ثم أمكن لهم أن يطلقوا على الحقبة الألفية الجديدة "عصر الداروينية الكونية الشاملة".[1]

وقد شكلت هذه الاستعارة – لا سيما في الإطار الثقافي – إشكالاً كبيراً، بسبب التباين الكبير بين مفهومي الجين والثقافة، وتباينت المواقف تجاه هذا المشروع التفسيري، وما بين المناصرين والمعارضين لهذا المفهوم الجديد، نجد أن أشد المتحمسين لهذه الفكرة لم يخفِ تحفظه إزاءها؛ حيث أشار إلى وجود مشكلات تتعلق بالميمات من حيث تصورها كبؤرة للعملية التطورية.

وعلى الرغم من أن "علم الميمات" قد مضى عليه ربع قرن من الزمن، إلا أنه فشل في إنشاء برنامج بحثي منتج في مجال العلوم المعرفية السائدة، أو علم الاجتماع، أو التاريخ الفكري.

وهذا الفشل يرجع إلى أن الغالبية العظمى، من الجهود المبذولة في مجال مبحث الميمات، لا تزال أعمالاً تجريدية في الأساس، ويستند بشكل أكبر على الإدراك المتنامي للنقص الإثباتي الهائل للأطروحة. فمفهوم الميم كان إما زائداً أو خاطئاً أو كلاهما.

أهمية البحث :

تبرز أهمية البحث في التحقق من جدوى تعميم مبادئ النظرية التطورية وأساليبها على العلوم الاجتماعية، والكشف عن الأهمية التفسيرية التي قد تضيفها النظرية الميميائية حول الظواهر الثقافية، ومدى صلاحية القياس بين الجينات والميمات كأساس علمي لها.

أهداف البحث :

نحاول في هذا البحث أن نستكشف الإمكانات النظرية لمماثلة النقل البيولوجي بالنقل الثقافي، ومماثلة دينامية التغير والتحول في كل منهما. وأن نعرض بعض الاتجاهات الميميائية المتعددة، كما نهدف إلى تقويم تلك المماثلة بين الميمياء والجينات من خلال تقويم مماثلة الجين بالميم.

منهج البحث :

اعتمدت في هذا البحث المنهج التحليلي الوصفي النقدي، حيث عرضت لهذه الفرضية مُتتبعاً نشأتها، ومبيناً لمفهومها الأساسي، ثم تطرقت إلى أساسها النظري وهو الاستدلال بقياس المماثلة، موضحاً عيوب هذا القياس، نظراً للتباين الماهوي بين الجين والميم.

---

[1] من أبرز ممثلي هذه النزعة: ريتشارد دوكينز، ودانييل دينيت، وسوزان بلاك مور.

خطة البحث :

يمكن استعراض مسائل البحث من خلال تناولها في عدة مباحث على النحو التالي:

المبحث الأول: ريتشارد دوكينز ومفهوم "الميم" التطوري

المبحث الثاني: إشكالية قصور التعريف المفاهيمي للميم

المبحث الثالث: الأساس النظري لمفهوم الميم التطوري عند دوكينز

المبحث الرابع: الفرضية الميميائية كتفسير تطوري للثقافة البشرية

المبحث الخامس: توظيف دوكينز الإلحادي لمفهوم الميم التطوري وإمكاناته المضادة للدين

الداروينية الثقافية "الميمات":

المبحث الأول:

ريتشارد دوكينز ومفهوم "الميم" التطوري:

في عام (1976م)، قدَّم دوكينز مفهوم "الميم meme" كأساس لتفسير دارويني لأصل وانتشار المعتقدات ضمن المجتمع، وقد تم نشر فكرة "الميم" للمرة الأولى في الفصل الحادي عشر من كتابه "الجين الأناني"، كجزء من فرضيته عن الداروينية الشاملة[1].

حيث يرى دوكينز أن التطور بالانتقاء الطبيعي ليس له نطاق محدد؛ أي إنه لا ينطبق فقط على التطور البيولوجي، ولكن على التطور الثقافي أيضاً، فكما أن الجين هو وحدة الوراثة والانتقاء في التطور البيولوجي، فإن مصطلح "الميم" عند دوكينز هو وحدة انتقال وانتقاء في النطاق الثقافي.

ومن الأمثلة التقليدية التي يقدّمها دوكينز على الميمات: الألحان، والأفكار، والعبارات، والأزياء، وجوانب العمارة، والأغاني، والإيمان بالله.[2]

ويرى دوكينز أن الميمات تنشر نفسها في مستودع الميمات بالقفز من مخ إلى مخ، عن طريق عملية يمكن أن نسميها على نحو فضفاض "المحاكاة" أو "التقليد"،[3] ويؤيّد هذا الاعتقاد كل من "دانييل دينيت"[1] في كتابه "فكرة داروين الخطيرة"، و"سوزان بلاك مور"[2] في كتابها "آلة الميمات".[3]

---

[1] انظر: دوكينز ريتشارد، 2009م – الجين الأناني. ترجمة: تانيا ناجيا، الطبعة الأولى 2009م، دار الساقي، 313.

[2] انظر: المرجع السابق 313، وستاموس دافيد، 2014م – التطور والأسئلة الكبرى. ترجمة: عزت عامر، الطبعة الأولى، المركز القومي للترجمة، القاهرة، 310–311.

[3] انظر: دوكينز، الجين الأناني، 313.

ولم يكن دوكينز أول من ألمح إلى دراسة التطور الثقافي من منظور داروينى، بل كان هناك بعض الكتَّاب قبل دوكينز بزمن طويل، الذين ألحُّوا على دراسة التغير المفاهيمي والثقافي باعتباره عملية انتخابية، وصاغ كثير من هؤلاء مصطلحات جديدة تشير إلى وحدات هذا التطور.[4] ويبدو أن فكرة الميم كانت تسبح في الحوض النظري في السبعينات، حتى نضجت في وقت واحد عند كل من دوكينز وويلسون،[5] حيث نشر كل منهما كتابه بفارق سنة واحدة.[6] وقد كان لتأسيس أنصار هذا الاتجاه صحيفة "المبحث الميمي"، ورعاية الأكاديمية البريطانية لمؤتمر حول مبحث الميمات عام (1999م)، ثم انعقاد مؤتمر جامعة كمبريدج في العام نفسه، إسهامات كبيرة في ظهور مبحث الميمات إلى الوجود، كبرنامج بحثي جاد ونشط.[7]

تم الترحيب بالميميائية في البداية، باعتبارها علامة على بداية "علم الثقافة الجديد"، القائم على "الداروينية العالمية"، وأصبح يُنظر إلى مفهوم "الميم" على أنَّه أساسي لـ "الداروينية العالمية"، ولكن كان واضحاً تماماً غياب أي تطوير تالٍ لهذا المفهوم، وهو ما أسماه الفيلسوف "إمري لاكاتوس"[8] "برنامج البحث المتوقف عن التقدم، تعبيراً عن تلك الحالة من الركود، حيث خلت الساحة من أي حملة فكرية

---

[1] دانيال كليمنت دينيت: فيلسوف وكاتب وعالم إدراكي أمريكي، يهتم بالبحث في فلسفة العقل وفلسفة العلوم وفلسفة علم الأحياء، وخصوصاً كيفية ارتباط هذه التخصصات بعلم الأحياء التطوري والعلوم الإدراكية، تولى دينيت منصب المدير المشارك لمركز الدراسات المعرفية وكرسي الفلسفة في جامعة "تافاتس". انظر ويكيبيديا الموسوعة الإلكترونية.

[2] عالمة باراسيكولوجيا بريطانية وكاتبة ومحاضرة شكوكية، في علم النفس والظواهر الخارقة، عُرفت بشكل كبير بكتابها آلة الميم. انظر: أونجر، الثقافة من منظور داروينى، 301–302.

[3] See: MCGRATH A., 2011 - **Darwinism And The Divine**. Wiley-Blackwell, 1st ed, 256.
وانظر: أونجر روبرت، 2005م – الثقافة من منظور داروينى. ترجمة: شوقي جلال، الطبعة الأولى، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، 20.

[4] من هؤلاء "ريتشارد سيمون" تحت عنوان "الذاكرة" عام (1914م). كما ظهرت مجموعة من التعبيرات اللغوية التي صيغت لوصف النسخ الثقافي مثل: "جين الثقافة" و"المنيموتايب" و"النمط الثقافي" و"الجين الاجتماعي". ولكن استخدام دوكينز لمصطلح "الميم" صار شائعاً. انظر: أونجر، الثقافة من منظور داروينى، 74. وعبود منى، 2008م – الميمياء. الطبعة الأولى، بيسان للنشر، بيروت، 113–118.

[5] عالم أحياء أمريكي اشتهر بعمله في مجالات التطور وعلم الحشرات وعلم الاجتماع الحيوي.

[6] نشر إدوارد ويلسون كتاب "علم الاجتماع البيولوجي" سنة (1975م)، بينما نشر دوكينز كتاب "الجين الأناني" سنة (1976م). انظر: عبود، الميمياء، 125–126. وأونجر، الثقافة من منظور داروينى 75.

[7] راجع: المرجع السابق، 75–76.

[8] فيلسوف مجري في الرياضيات والعلوم، مواليد (1922 – 1974م).

تهدف إلى إنتاج نظرية عامة عن النواسخ الثقافية؛ فقد كان الحماس ضئيلاً تجاه مفهوم الميم بين المعنيين، من علماء الأنثروبولوجيا الثقافية والاجتماعية.[1]

ويمكن اعتبار فرضية المكررات الثقافية أحد أكثر السمات المميزة لـ "الداروينية العالمية"، والتي تجلَّت من خلال الإلحاد الجديد، الذي ظهر في الفترة بين (2006–2007م)، والذي يحاول من خلالها تفسير الأنماط العامة والنتائج المحدَّدة للتطور الثقافي.[2]

المبحث الثاني:

إشكالية قصور التعريف المفاهيمي للميم:

هناك خلاف كبير بين المنظّرين الميميائيين حول مفهوم الميمات، سواء في محدداته، أو مجاله، أو مداه، أو آليات عمله، فلا يزال تعريف الميم غامضاً، وقد أعطى الميميائيون تعريفات عدَّة بعضها مكمّلة للبعض الآخر، وبعضها متناقضة فيما بينها.[3]

ويميل الباحثون إلى أن يكونوا معرفيين، أي أنهم يركزون على المعرفة وقصر الفكرة على الكيانات الذهنية، ولكن البعض الآخر ومنهم "سوزان بلاكمور" ربما يقصرون الفكرة على أنواع معينة من الميمات الذهنية، مؤكدين أن الانفعالات على سبيل المثال، لا تتناسخ أو ليست مُعدية، ولكن أكثر الباحثين يناقشون قسمات الميمات ويغفلون حقيقة أن وجودها لم يؤكّده أيّ برهان.[4]

أيضاً هناك إشكالية واضحة في تعريف دوكينز للميم، فحسب روايته عن التوليف الداروينى الجديد،[5] فإن الجين هو وحدة الاختيار، على الرغم من أن النمط الظاهري هو الذي يخضع بالفعل لعملية الاختيار، فالجين هو المكرَّر، أو مجموعة التعليمات؛ والنمط الظاهري هو المظهر المادي للكائن الحي، أو الخصائص أو السلوك المرئي الناتج عن تلك المجموعة من التعليمات؛ ولكن جميع أمثلة "الميمات" التي يقدّمها دوكينز في الجين الأناني، هي نتيجة هذه التعليمات، وليست التعليمات نفسها، وعندما اقترح

---

[1] See: Macgrath, Darwinism And The Divine, 254-255.

وانظر: أونجر، الثقافة من منظور داويني، 16.

[2] انظر: عبود، الميمياء 104. وأونجر، الثقافة من منظور داروينى، 20.

[3] راجع: أونجر، الثقافة من منظور داروينى 107. وعبود، الميمياء، 103 وما بعدها.

[4] راجع: المرجع السابق، 22–23.

[5] النظرية التوليفية للتطور أو الداروينية الجديدة: هي عبارة عن توليف بين عدة مجلات، الجينياء الجزيئية، وجينياء الجماعات، وعلم المتحجرات، وعلم الحيوان، وعلم النبات. وتم هذا التوليف من خلال أعمال "جورج سميسون" و"أرنست ماير" و"توماس هكسلي"، التي اعتبرت بمثابة تقديم جديد للنظرية الداروينية في التطور البيولوجي عام (1950م). انظر: عبود، الميمياء، 41.

دوكينز تشابهاً بين الميمات والجينات، فقد أوضح ذلك بالفعل من خلال استحضار المكافئ الثقافي للأنماط الظاهرية، وليس الجينات. وقد أدرك دوكينز هذه المشكلة، وعدَّل أفكاره في عمله التالي "النمط الظاهري الموسَّع" (1982م). واعترف بأن روايته الأصلية للميم كانت معيبة، وأنها تتطلَّب تصحيحاً.[1]
ومع ذلك، فإن هذا الارتباك حول مفهومين مختلفين تماماً للميم – وهما الميم كسلوك، والميم كتعليمات – يُسبّب صعوبة في تقييم كل من المعقولية العلمية للميم، وكذلك النموذج التطوري الذي يقع فيه.[2]
ولذلك نجد أن أغلب المناقشات الدائرة بشأن الميمات، تحاول أن تؤكّد سمات الميمات، حتى مع عدم وجود تصنيف معياري للمفهوم، حيث تؤكّد بلاكمور أن بالإمكان أن نمضي في طريقنا دون أن نقلق بشأن تعريف الميمات، بيد أنَّها لا تقدّم البرهان على أن مثل هذه القدرات تُشكّل أساساً للثقافة البشرية، ولا على وجود حزم معلومات تحمل خصائص المتضاعفات الثقافية.[3]
إن الشيء المؤكَّد أنَّه إذا كانت الميمات موجودة، فلا بد وأن تخلف آثاراً لها في العالَم، ولا بدَّ أن يسبق أي بحث تجريبي عن الميمات توفّر فكرة راسخة عن ماهية الميم. ولكن عندما لا يكون هناك تعريف عملي واضح للميم، ولا يوجد نموذج قابل للاختبار لكيفية تأثير الميمات على الثقافة، مع درجة عالية من التعميم في تفسير قوة الميمات؛ فإن برنامج البحث العلمي الجاد غير ممكن، وحينها سيلوذ الباحثون بأسلوب التأكيد – وهو ما يفعله دوكينز – على أساس التشبيه بمتضاعف معروف جيداً، ألا وهو الجين؛[4] لذا يمكن القول بأن مبحث الميمات لا يزال مرتبطاً مفاهيمياً، وليس أنطولوجياً بالبيولوجيا.[5]

المبحث الثالث:

الأساس النظري لمفهوم الميم التطوري عند دوكينز:

تقوم الابستمولوجيا التطورية[6] على الاستدلال القائم على التناظر، بين الجين في التغير البيولوجي والميم في التغير المفاهيمي، بواسطة آلية الانتخاب الطبيعي، وهكذا تعتمد فرضية الميم التطوري على القياس

[1] See: Macgrath, Darwinism And The Divine, 256.
[2] See: Darwinism And The Divine, 256-257.
[3] انظر: أونجر، الثقافة من منظور دارويني، 23.
[4] انظر: أونجر، الثقافة من منظور دارويني، 23.
[5] See: Macgrath, Darwinism And The Divine, 259.
وانظر: أونجر، الثقافة من منظور دارويني 23–24. وعبود، الميمياء، 111.
[6] نظرية المعرفة والعلوم التطورية.

على الجين البيولوجي، على أساس الافتراض – المتنازع عليه بشدة – أنه نظراً لأنَّ التطور الثقافي هو عملية داروينية، فيجب أن يكون هناك مُكَرَّرٌ ثقافي مماثل للتّكرار الجيني.

ويعتقد المدافعون عن الميم، من أمثال "ديفيد هول"[1] و"ريتشارد دوكينز"، أن تكرار الميمات وانتشارها يمكن مقارنتهما بالعدوى الوبائية، حيث يتلقى الأفراد الفيروسات ويحملونها بشكل سلبي، ويصوّرون البشر كمتلقين سلبيين للميمات، لكن هذا التشبيه مشكوك فيه للغاية، ناهيك عن التبسيط النفسي لعملية اكتساب ونقل الأفكار البشرية.[2]

لذلك شكَّك بعض النُقَّاد، من أمثال الفيلسوفة والناقدة البارعة لفرضية الميمات "ماري ميدجلي"،[3] بمنظور دوكينز القائم على التناظر الصريح بين الميمات والفيروسات، والذي ينزع إلى التركيز على طابع العدوى، باعتباره العامل المسؤول عن انتشار الميمات،[4] وتساءلت ميدجلي حول دور الفاعلية البشرية وفق هذه الرؤية المادية، ووجهة نظرها أنَّه بينما يمكن للناس التصرُّف كحاملين سلبيين للفيروسات البيولوجية، لا يمكن اعتبارهم "حاملات" سلبية للأفكار والمعتقدات.[5]

ورأى العالمان البيولوجيان "روبرت بويد"[6] و"بيتر ريتشرسون"[7] في المقابل، أن التطور الثقافي يمكن منطقياً أن يمضي دون تضاعف، وأن التطور الثقافي ليس بحاجة إلى تضمين الانتخاب الطبيعي بين المكرّرات، فالثقافة يمكن اعتبارها مستودعاً للمعلومات، لا تشبه نظيرها البيولوجي وهو الانتخاب الطبيعي بين الجينات.[8]

لقد تعرضت هذه المقاربة التي تعتمد على الاستدلال بالمماثلة – بين الميم والجين – لكثير من النقد مع صعود الفكر العقلاني، واتُهمت بأنَّها تفتقد الدقَّة العلمية، حيث أُخضعت عملية التكرار للفحص الدقيق،

---

[1] أستاذ التاريخ وفلسفة العلم والدراسات الاجتماعية للبيولوجيا، في جامعة ولاية بنسلفانيا. انظر: أونجر، الثقافة من منظور دارويني، 303.

[2] See: Macgrath, Darwinism And The Divine, 258-259.

[3] فيلسوفة بريطانية ومحاضرة في جامعة نيو كاسل، كانت معروفة بأعمالها في مجال العلوم والأخلاقيات وحقوق الحيوان.

[4] انظر: أونجر، الثقافة من منظور دارويني، 169.

[5] See: Macgrath, Darwinism And The Divine, 257.

[6] عالم أنثروبولوجيا أمريكي من مواليد (1948م).

[7] عالم أحياء أمريكي من مواليد (1943م)، وأستاذ فخري في قسم العلوم البيئية والسياسية في جامعة كاليفورنيا. انظر: أونجر، الثقافة من منظور دارويني، 305.

[8] راجع: المرجع السابق، 34–36.

وتم توجيه الكثير من الانتقادات ضد الموثوقية المحتملة لهذه العملية، ويمكن تحديد ثلاثة اعتراضات مهمة بشكل خاص:[1]

1- عادة ما تكون عمليات الانتقال الثقافي غير مكتملة وغير كاملة، ولذلك وعلى عكس الأنظمة الجينية، نادراً ما يحدث تكرار دقيق، فـ"التكرار" بالمعنى الدقيق للكلمة، هو الاستثناء وليس القاعدة.

2- ثم إنَّ العمليات الاستدلالية "تُعَدِّل" هذه التمثيلات الثقافية، أثناء انتقالها وإعادة بنائها، في تناقض ملحوظ مع عملية تكرار الحمض النَّووي الريبي، وهذا يشير إلى أنَّ العمليات الشبيهة بالطفرات، أهم بكثير من العمليات الشبيهة بالاختيار، في تشكيل التفاوت الثقافي.

3- أيضاً على عكس الجينات، نادراً ما تكون التمثيلات الثقافية وحدات منفصلة، مما يُشير إلى أنَّ فكرة "المكرَّر" مثل الميم، لا معنى لها بالنسبة لمعظم أنواع التمثيلات الثقافية.

فالثقافة غير قابلة للتَّقسيم إلى وحدات، كما رأى كل من "بويد" و"ريتشرسون" و"بلوخ"،[2] الذي يُعبّر عن ذلك بقوله: "إنَّ المشكلة التي يقرأها علماء الأنثروبولوجيا مباشرة فيما يتعلَّق بالميمات تكمن ... في الفكرة القائلة إنَّ الثقافة تتألَّف في نهاية الأمر من وحدات قابلة للتمايز، ولها حياة مستقلَّة".[3] ومن ثَمَّ يغدو مبحث الميمات إزاء مشكلة محوريَّة واضحة، وهي أن يبدأ في عزل وتحديد هذه "الوحدات"، وفيما لو استطاع ذلك، يمكن فقط قبول وإقرار جدوى هذا النهج، داخل الأوساط العلمية الاجتماعية.

علاوة على ذلك، ففي حين أنَّه من السهل تحديد الموقع الأساسي للمنافسة بين الجينات، فإنَّ الشيء نفسه لا ينطبق على الميمات المفترضة؛ حيث تتنافس الجينات مع "الأليلات"[4] الأخرى في نفس المكان على الكروموسوم، وتؤدّي إلى اختلافات في الأنماط الظاهرية للكائن الحي، وفي المقابل ما هو المكافئ في حالة الميمات المزعومة المماثلة؟

وهذا ما دفع سوزان بلاكمور إلى التّشكيك بأساس القياس، الذي طوّره دوكينز لمفهوم الميمات، معتبرة الميمات هي أفضل فكرة ليس بالقياس على الجينات، ولكن باعتبارها مكرّرات جدد، بأساليبها الخاصة للبقاء والتناسخ.[5]

---

[1] للاطلاع الموسع على هذه الانتقادات انظر: Macgrath, Darwinism And The Divine, 258. وعبود، الميمياء، 442-448.

[2] موريس بلوخ: أستاذ الأنثروبولوجيا وعلم النفس المعرفي وزميل بالأكاديمية البريطانية. انظر: أونجر، الثقافة من منظور دارويني، 302.

[3] المرجع السابق، 39-40.

[4] هي نسخ أو أشكال بديلة للجين أو مواقع كروموسومات.

[5] See: Macgrath, Darwinism And The Divine, 259.

كما لاحظ دينيت أنَّ ما يتم الاحتفاظ به ونقله خلال عملية التطور الثقافي، هو معلومات بالمعنى المحايد، فالميم ليس تصنيفاً بنائياً يمكن ملاحظته مباشرة في لغة المخ، كالجينات التي نجدها في قاموس الحمض النَّووي، وإذا كانت الميمات موجودة في المخ، فليس ممكناً أبداً أن نتبيَّن المحتوى الميمي لقطاع ما في لحاء المخ. ويُشير هذا عند دينيت، إلى أنَّ العلماء الاجتماعيين لن تتوفر لهم أبداً التقنيات "الاختزاليَّة"، التي استخدمها علماء البيولوجيا والفيزياء لمثل هذا الهدف، من أجل بحث واكتشاف كيف تتناسخ أو تتضاعف، مستخدمة الأساس المادي للحمض النَّووي.[1]

أيضاً تم التّشكيك في هذا التشبيه الأساسي بين الجين والميم، من قبل "دان سبيربر"[2] و"باسكال بوير" و"سكوت أتران"، الذين يقولون بأنَّ تدفق المعلومات الثقافية لا يمكن اعتباره مشابهاً بشكل مباشر للمعلومات الوراثيَّة؛ فعلى سبيل المثال، تنتقل المعلومات الوراثيَّة على وجه التحديد وبصورة فريدة من الآباء إلى النسل؛ ولا تتمُّ مشاركتها مع مجموعة أوسع من الأفراد، بينما تنتقل المعلومات الثقافية بصورة أعم بين الأفراد والجماعات، كما تفتقر إلى خصوصيَّة المعلومات الوراثية، وعادةً ما يتم بناء أفكار الطفل من مصادر عديدة، ومن خلال العديد من التعرُّضات؛ فلا يمكن اعتبار هذه الأفكار "نسخة" من مجموعة أصليَّة من الأفكار الأبويَّة، على غرار الجينات.[3]

ربما تبدو الأفكار وكأنَّها "تتصرف" في نواحٍ معيَّنة كما لو كانت فيروسات؛ لكن هناك فجوة هائلة بين التشابه والتماثل، وكما يوضح تاريخ العلم، فإنَّ معظم المسارات الزائفة في العلم، تدور حول المقارنات المفترضة خطأً على أنَّها تطابقات. إن الحجج العلمية القائمة على القياس يمكن أن تكون مَعيبة للغاية، حتى لو كانت تمتلك قدراً من المعقوليَّة الحدسيَّة.

وخير مثال على ذلك يكمن في البحث العقيم عن الأثير المضيء، في أواخر القرن التاسع عشر، بناءً على التشابه المفترض بين الضوء والصوت، فقد أثبتت تجربة ميشيلسون مورلي الشهيرة أنَّه لا يوجد دليل على ما يسمى "الأثير"؛ حيث كان مقبولاً قياسياً ولكنَّه برهانياً غير موجود، وقد اعترف دوكينز منذ بضع سنوات أن الميمات لم يعثر عليها كل من واتسون وكريك فضلاً عن مندل.

---

[1] انظر: أونجر، الثقافة من منظور دارويني، 17-18.

[2] عالم اجتماعي ومعرفي فرنسي، وأستاذ الأنثروبولوجيا والقانون واللسانيات والفلسفة وعلم النفس في جامعة كامبريدج، وجامعة برنستون، وجامعة ميتشغان، وجامعة هونج كونج. انظر: المرجع السابق، 305-306.

[3] Macgrath, Darwinism And The Divine, 259.

ويبدو أن الميمات انتظرت ميشيلسون ومورلي؛ لتوجيه الضربة النهائية لنظرية غير مُرضية وغير ضرورية، ومرتبطة بشكل مشبوه بالنقاش حول الله، وفي الوقت الراهن يبدو أن الميم لا يُؤخذ على محمل الجد، إلا من قِبل دُعاة "الداروينية العالمية" والتي لعبت فيه دوراً بارزاً.[1]

المبحث الرابع:

الفرضية الميميائية كتفسير تطوري للثقافة البشرية:

تُمثّل الميميائية حالة من استخدام نظرية التطور المستمدة من علم الأحياء، إلى مجموعة أوسع من القضايا الفكرية والثقافية والدينية، ووفق وجهة نظر دوكينز: "تعتبر النظرية التطورية نظرية واسعة لا تقتصر على تطور الجينات، بل يمكن تطبيقها في كل ميدان تتوافر فيه شروط التطور".[2]

ويَفترض الميم نتيجة لقناعته السابقة بأن التطور الثقافي هو عملية داروينية في الأساس،[3] فالاعتقاد أو الالتزام المسبق هو أنَّ التطور الثقافي داروينيي، والنتيجة هي اختراع الميم.

والإشكالية المطروحة هنا هي: هل تستطيع الفرضية الميميائية أن تُبرهن على أحقيَّتها، في الانخراط في العلوم الاجتماعية المتعارف عليها، لا سيما الأنثروبولوجيا وعلم النفس الاجتماعي؟ وهل تستطيع أن تشكّل علماً مستقلاً؟ أم أنَّها مجرَّد مقاربة منهجية جديدة؟

يعتقد بعض العلماء الأكثر شهرة في هذا المجال، من أمثال ريتشارد دوكينز ودانيال دينيت وسوزان بلاكمور، أن نظرية الميمياء ستُغَيِّر بشكل جذري مفاهيم المسؤولية والإبداع والقصد، كما غيَّرت النظرية الداروينية جذرياً مفهوم الخلق في البيولوجيا، فمن وجهة نظر هؤلاء، ليس الذهن بما يتضمَّنه من قوة في التفكير واتخاذ القرار والاختراع، سوى مجموعة مركبات ميمية طفيلية، وما تَحَكُّمنا بها سوى وَهْمٌ بحت.[4]

ولكن بالنظر إلى الأساس النظري للميم، والذي يتبع علم البيولوجيا أو علم الأوبئة، فإن الأسئلة التي تحتلُّ الصدارة من خلال هذا المنظور تثير مشاكل متعدّدة، فما هي آليات الوراثة والانتخاب والطفرة بالنسبة للميمات؟ وما هي الأصول التي نشأت عنها؟ على الرغم من أنَّ هذه المقاربة بين الميم والجين، من شأنها – من الناحية النظرية – أن تعطي مبحث الميمات أساساً نظرياً أقوى، إلا أنَّ المشكلة هي أنَّ هذه الأسئلة سوف تظلُّ عصيَّة على الإجابة.[5]

---

[1] انظر: المرجع السابق، 262.

[2] انظر: عبود، الميمياء، 89، وأونجر، الثقافة من منظور دارويني، 24-25.

[3] See: Macgrath, Darwinism And The Divine, 255.

[4] انظر: عبود، الميمياء، 33.

[5] انظر: أونجر، الثقافة من منظور دارويني، 25. وراجع: عبود، الميمياء، 433-435.

ومن أهم الاعتراضات الموجَّهة لهذه الفرضية، عدم وجود مرجعية معيارية لتحديد ما هو ناجح أو غير نافع من الميمات، بالإضافة إلى انتفاء إمكانية تمييز الأهداف التي تتجه الميمات نحوها أو كشفها أو اختبارها، فضلاً عن تعطيل الحرية والإرادة الإنسانية عن اتخاذ القرارات وإبداع الأفكار أو تطويرها أو تغييرها، وفرض حتميَّة ميمية على عمليات التعلّم والتنمية المعرفية، من خلال تلك القوة الذاتية الفاعلة للانتخاب الميمي، لتكرار الميمات وتحديد ما هو باق أو زائل منها، وتوجيه تفكيرنا ومشاعرنا واتجاهاتنا.[1]

فالإبداع كما تنقل بلاكمور على لسان دينت، يخضع للتفسير التطوري، ضمن إجراء عشوائي ميكانيكي، والذي يخلق "التصميم من بين عماء الفوضى بدون مساعدة العقل"، لكنها تعود لتقرّر في معالجتها لهذه الإشكالية، بأنَّ العمليات التطورية هي عمليات إبداعية، خلافاً لما قد يظنُّه الكثيرون من أنها عملية ميكانيكية عفوية وساذجة، بل لعلَّها العمليات الإبداعية الوحيدة – على حد زعمها – على ظهر الكوكب! فقد جعلت من التفسير التطوري قوة إبداعية، وقصرت المشاركة البشرية في حدود كونها "آلة محاكاة نشطة وذكية"، مشاركة في نصيب من هذه العملية التطورية الجديدة، وليست كياناً واعياً قادراً على البقاء خارجها ويقوم بتوجيهها.[2]

وتعترف بلاكمور صراحةً بهذا المأزق بقولها: "ولعلَّ الفكرة التي تمثّل تحدياً قوياً، هي الفكرة القائلة إنَّ ذاتي الباطنية، التي تبدو لي متحلية بالوعي والإرادة الحرَّة، إنما هي في الواقع مُركَّب ميمي، خلقتها عملية استنساخ الميمات، ولأجل مصلحة هذه الميمات ... إنَّ القوة الإبداعية المنسوبة "لي أنا"، هي في الحقيقة تصميم صاغه التطور الميمي. وهكذا، وحسب هذه النظرة، فإنَّ الطبيعة البشرية منتَج لميمات وجينات متنافسة؛ من أجل الاستنساخ داخل بيئة مركبة، ولا مجال لمبادئ إرشادية خفية أو لذرات باطنية لها إرادة حرة، ويمكن لمبحث الميمات بهذه الطريقة أن يغيّر تماماً نظرتنا إلى أنفسنا، وأن يُحدِث تحوّلاً دراماتياً في فهمنا للطبيعة البشرية، مثلما حدث في البيولوجيا التطورية حين التزمنا بالنظرة بعين الجينات".[3]

إنَّ الدعوة للاعتراف بهذه الفرضية باعتبارها حقيقة علمية، يمكن أن تنجم عنها تداعيات أكثر كارثية، حيث تغدو الأفكار الغريبة والشاذَّة، أفكاراً يمكن اعتبارها ميمات ناجحة على الرغم من زيفها"، وفق بلاكمور.[4]

---

[1] انظر: أونجر، الثقافة من منظور دارويني، 63.

[2] انظر: المرجع السابق، 48.

[3] المرجع السابق، 64، وانظر: عبود، الميمياء، 148–150.

[4] انظر: أونجر، الثقافة من منظور دارويني، 63.

وفي حين أنه من الواضح – في الواقع وبلا نزاع – أنَّ الكيانات الثقافية تتطور بالمعنى العام للتغير التدريجي، والذي يعكس القيود والتكاليف التي تفرضها بيئة ما، فإن هذا لا يعني بالضرورة أن يحدث ذلك بواسطة أو من خلال آليَّة داروينية.[1]

حيث تلعب القضايا النفسية دوراً حاسماً في التطور الثقافي، وبالتالي فإنَّ التقدّم في فهم التطور الاجتماعي والثقافي، يتطلَّب بحث كيفية تفاعل الهياكل المعرفية البشرية الفطرية مع العمليات الاجتماعية، والنتائج السلوكية لهذا التفاعل.[2]

ويُشير علم النفس التطوري بأنَّ القطاع الأكبر من الثقافة، يمثّل استجابات فطرية، تستثيرها ظروف ملابسات جزئية، وليست معلومات منقولة بين الأنماط الظاهرية.[3] كما يشير علماء النفس إلى أنَّ الأفراد يفسّرون المعلومات التي يتلقّونها، في ضوء معارفهم وقيمهم الحالية، وعلى أساس ذلك قد يقرّرون رفض أو قبول أو تعديل المعلومات التي يتم إيصالها إليهم. وبعبارة أخرى، يشارك الأفراد والمجموعات ويتدخلون في صياغة الثقافة ونشرها، وبهذا المعنى يجب اعتبار التطور الثقافي لاماركياً، أو أنَّ له عناصر لاماركية، بدلاً من كونه داروينياً بحتاً.[4]

ويعكس رد الفعل الغاضب للعديد من علماء الأنثروبولوجيا على الفكرة العامة للميمات، الجهل الواضح لمؤيدي الفرضية الميمائية بنظام الأنثروبولوجيا، ونجاحاته الرئيسية في تفسير التطور الثقافي، دون الشعور بالحاجة إلى تطوير أي شيء مثل فكرة "الميم"؛ حيث يرى معظم منتقدو فكرة الميمات أنَّ أكبر فشل لها، هو أنَّها تقتصر على مجرّد إعادة وصف مجموعة من الظواهر بعبارات ميميائية، مع الإصرار على تقديم ذلك على أنَّه "تفسير" لتلك الظواهر.[5]

وقد أدرك دوكينز نفسه أنَّ النموذج الميمي يمثّل مشكلة عميقة، حيث اعترف في بيانه الأساسي لمفهوم الميم في "الجين الأناني" أنَّه كان قاصراً، ولكنَّه في "وهم الإله"، والذي نُشر بعد ثلاثين عاماً من تقديمه

---

[1] See: ALEXANDER D and NUMBERS R., 2010 - **Biology And Ideology**. The University of Chicago Press, London 2010, 349.

[2] See: Macgrath, Darwinism And The Divine, 258.

[3] انظر: أونجر، الثقافة من منظور داروينى، 37.

[4] اللاماركية أو الوراثة اللاماركية: هي الفرضية القائلة بأن الكائن الحي يمكنه أن ينقل إلى نسله الخصائص التي اكتسبها، من خلال الاستخدام أو عدم الاستخدام لهذه الخصائص خلال حياته. وتعرف أيضاً باسم وراثة الخصائص المكتسبة أو الوراثة اللينة. انظر: Macgrath, Darwinism And The Divine, 257.

[5] See: Macgrath, Darwinism And The Divine, 260.

لفكرة "الميم"، يقدّم الميمات كما لو كانت راسخة في المعتقد العلمي، دون ذكر الحقيقة المزعجة وهي أنَّ المجتمع العلمي السائد، ينظر إليها على أنَّها ذات أهمية هامشية، وقيمة تفسيرية مشكوك فيها.[1]

أما بالنسبة لماكغراث و"كيفين لالاند"[2] و"جون أودلنج"،[3] فإنَّ المسألة ليست ما إذا كانت الميمات موجودة فعلاً أم لا، على نحو ما اقترح روبرت أونجر[4] في مقدمته، ولكن ما إذا كانت وسيلة نظرية مفيدة،[5] فبينما يقترح كل من لالاند وأودلنج وجود دور لها في مسيرة التطور الثقافي،[6] يعلن ماكغراث صراحة أنَّها فرضية غير مثبتة بالأدلة من جهة، وغير ضرورية وزائدة تفسيرياً من جهة أخرى، تم افتراضها عن طريق القياس المشكوك فيه مع الجين.[7]

وهو ما دفع الدكتور "بروس إدموندز"[8] إلى توجيه انتقادين أساسيَّين لمفهوم الميمات، يعتقد أنَّهما قوَّضا مزاعمها بالمعقوليَّة في المجتمع العلمي:

الأول: أنَّ السبب الكامن وراء فشل الميمات، هو أنَّها "لم توفر أيَّ قوة تفسيرية أو تنبؤية إضافية، تتجاوز تلك المتاحة بدون التشبيه بالجينات"، وبعبارة أخرى، لم تقدّم أي "قيمة إضافية" من حيث توفير فهم جديد للظواهر.

والآخر: هو أنَّ دراسة الميمات اتسمت بـ "النقاش النظري بتجريد وطموح مفرط"، ويصفها إدموندز بأنَّها محاولات غير واقعية وطموحة، غالباً ما يتم تطويرها مسبقاً قبل تقديم الأدلة، "لتفسير" بعض الظواهر المعقَّدة للغاية مثل "الدين"، ولكن بالنسبة للعديد من داعميها الأكثر حماساً، فإن هذا هو الهدف بالضبط من الميمات: "التفسير بعيداً عن الإيمان بالله".[9]

في الحقيقة لم يقدّم مبحث الميمات فرضيات قابلة للاختبار تجريبياً، فإذا كانت التفسيرات العلمية فيما يُفترض قابلة للاختبار، وذات محتوى تجريبي، فأيُّ حق يمكننا ادعاءه بأن النظريات التي تستعين بهذه

---

[1] See: Alexander and Numbers, Biology And Ideology, 346-347.

[2] أستاذ السلوك الحيواني والتطور في جامعة كامبريدج. انظر: أونجر، الثقافة من منظور دارويني، 304.

[3] عالم بيولوجيا تطورية وأستاذ التطور الجيني – الثقافي المشترك في جامعة أوكسفورد. انظر: المرجع السابق، 304.

[4] أستاذ الأنثروبولوجيا البيولوجية وباحث في نظريات التطور الثقافي. وهو أستاذ في جامعات "تورث وسترن" و"شيكاغو" و"كامبريدج". انظر: المرجع السابق، 301.

[5] انظر: المرجع السابق، 153–154.

[6] انظر: المرجع السابق، 164 وما بعدها.

[7] See: Macgrath, Darwinism And The Divine, 258-259.

[8] أستاذ المحاكاة الاجتماعية ومدير مركز نمذجة السياسات في جامعة مانشستر.

[9] See: Macgrath, Darwinism And The Divine, 260.

الكينونات النظرية وصفاتها، تمدُّنا بتفسيرات حقيقية، في الوقت الذي لا نستطيع أن نكتسب خبرة بها بأيّ حال؟[1]

تبدو فكرة الميم مجرد تكهنات وافتراضات زائفة، في محاولة لتفسير مسيرة التطور الثقافي والمفاهيمي، على أساس الرؤية الداروينية الشاملة منذ هكسلي وحتى دوكينز، وتدفع أنصارها في النهاية إلى التسليم بها على عِلَّاتها من غير دليل.[2]

وفي النتيجة لا يزال مبحث الميمات مكرَّساً تقريباً، للعداءات النظرية والتفسيرات الدراسية، فهو علم يبحث عن موضوع لدراسته؛ لأنَّ فكرته الأساسية ينقصها الجوهر، فهو علم – على حد قول أونجر – يحتضر تجريبياً.[3]

وقد شنَّ دينيت وهو من أبرز أنصار المبحث الميمي، ما يمكن وصفه بأنَّه أكثر الهجمات تطوّراً، ضد فكرة أن مبحث الميمات أصبح علماً، أو يمكن أن يصبح علماً؛ على اعتبار أنَّ الميم هو أولاً وأساساً تصنيف "سيمانطيقي" دلالي، وليس تصنيفاً "بنائياً"، يمكن أن نلحظه مباشرة في لغة المخ أو اللغة الطبيعية.[4] فمن المستبعد جداً حسبما يفيد علم الأعصاب، أن تكون في المخ هياكل لتناسخ المعلومات، في حين أنَّ اللُّغة البنائية عن الجينات نجدها في قاموس الحمض النَّووي.[5]

كما تنبَّأ دوكينز بنتيجة مماثلة فقال: "إحساسي الخاص هو أنَّ قيمتها الأساسية – فرضية الميم– قد لا تكمن كثيراً في مساعدتنا على فهم الثقافة البشرية، كما هي في تحسين منظورنا عن الانتخاب الطبيعي الجيني".[6]

ربما يكتسب القارئ الساذج انطباعاً، بأنَّها تُقدّم له خلاصة البحث العلمي المتطوّر، في حين أنَّها تقدّم له في الحقيقة ضرباً من الثرثرة التخمينية، وأخيراً ينعي إدموندز الميمات بقوله: "لقد كانت بدعةً عابرة كان تأثيرها هو التشويش أكثر من التنوير".[7]

---

[1] راجع: روزنبرغ أليكس، 2011م – فلسفة العلم، ترجمة: أحمد السماحي وفتح الله الشيخ، الطبعة الأولى، المركز القومي للترجمة، القاهرة، 160– 162.

[2] انظر: أونجر، الثقافة من منظور داروينى، 63.

[3] انظر: مقال روبرت أونجر ضمن كتاب ريتشارد دوكينز عالم غير أفكارنا (220–221).

[4] انظر: أونجر، الثقافة من منظور داروينى، 17–18.

[5] انظر: المرجع السابق، 21.

[6] انظر: مقال أونجر ضمن كتاب ريتشارد دوكينز عالم غير أفكارنا (228).

[7] Macgrath, Darwinism And The Divine, 261.

المبحث الخامس:

توظيف دوكينز الإلحادي لمفهوم الميم التطوري وإمكاناته المضادة للدين:

بما أنَّ الداروينية هي النظرية الكبرى التي يقترحها دوكينز، فينبغي أن تكون قادرة على تقديم تفسيرات اختزالية لسبب إيمان الناس بالله، وأحد هذه التفسيرات هو "الميم"، ففي تسعينيات القرن الماضي، قدَّم دوكينز فكرة "ميم الله" كنوع من الفيروس العقلي، الذي يؤثر في سائر وظائف العقل الصحية.

وبالنسبة لدوكينز فإنَّ الإيمان بالله ينتشر عن طريق "ميم الله" المتكيّف جيداً، والذي ينشر نفسه بين الناس بعملية العدوى المُعدية،[1] حيث إنَّ لديه قيمة بقاء عالية في مستودع الميم –كما يقول دوكينز– أو "قوة مُعدية" ترجع إلى "جاذبيته النفسية الكبيرة"، في الإجابات التي يقدّمها حول المسائل المجهدة حول معنى الحياة، والراحة التي يقدّمها في مواجهة الألم والمأساة في الحياة، والأمل الذي يقدّمه في معالجة الكثير من المظالم التي يعاني منها الناس في الحياة.[2]

وقد طُبِّقت الفكرة نفسها وبدقة على الأديان، وارتبطت باقتراح دوكينز القائل بأن الأديان فيروسات عقلية، وأنَّ بعض أعظم الأديان في العالم ربما انتشرت لا بسبب صدقها، أو بسبب ما تقدّمه من عون لأي شخص؛ بل فقط لأنها ميمات ناجحة، ومدعومة بالوعد والوعيد، وبوسائل تحول دون اختبار مزاعمها.[3]

ويحقُّ لنا أن نتساءل هنا: هل تنتشر جميع المعتقدات عن طريق الميمات؟ أم فقط تلك التي لا يحبُّها النُقَّاد المعادون للدين؟ وهل هناك في المقابل ميم للإلحاد؟ يُجيب دوكينز بأنَّه لا حاجة إلى طرح ميم لأفكار واضحة الصحة بذاتها مثل الإلحاد، أمَّا الأفكار التي يَعتبر أنه لا يمكن الدفاع عنها، فهو يعتقد أنها تتطلَّب تفسيراً ميمياً.[4]

ولكن ما هي الميمات الناجحة؟ وما هي المرجعية المعيارية لتحديد ما هو ناجح أو غير نافع من الميمات؟ والجواب عند دوكينز حسب المبادئ العامة للتطور، هي الميمات صاحبة أعلى قدر من الأمانة والصدق والخصوبة وطول الحياة![5]

---

[1] See: Alexander and Numbers, Biology And Ideology, 346. And Macgrath, Darwinism And The Divine, 255.

[2] انظر: دوكينز، الجين الأناني، 314. والتطور والأسئلة الكبرى (313).

[3] انظر: أونجر، الثقافة من منظور دارويني، 56. وللإطلاع أكثر على هذا الاتجاه الذي يعزو الآراء والمعتقدات الدينية "مركبات ميمية"، راجع مبحث: "الميمات الدينية المشتركة في ملحمة جلجامش والتوراة"، للدكتورة منى عبود، الميمياء، 366.

[4] See: Alexander and Numbers, Biology And Ideology, 348.

[5] انظر: دوكينز، الجين الأناني، 315. وأونجر، الثقافة من منظور دارويني، 53. وعبود، الميمياء، 134.

فهل لدى الميمات تلك القوة الواعية والمدركة للاتصاف بذلك؟ أيضاً أليس في إجابة دوكينز هذه استدلالاً دائرياً؛ بحيث يجعل قابلية الميمات الناجحة للاستمرار والتكاثر، متوقّفة على كونها خصبة ومتَّصفة بالحياة مسبقاً؟ وهذا يعود بنا إلى السؤال عن الميم الأول، من أين أتى وما الذي رجَّح كونه ناجحاً؟ وعلى حساب أيّ من الميمات الأخرى الأقل جودة والتي لم تكن موجودة أصلاً؟!

وهكذا يفترض دوكينز – وبدون دليل – ميماً للـ "الإيمان الأعمى"،[1] ويعتمد في تبريره الإلحادي على افتراض أنَّ هذا الإيمان بالله، هو نتيجة التأثير الميمي، ثم يقدّم دوكينز "الميم" كما لو كان كياناً موجوداً بالفعل، ولديه إمكانات هائلة لشرح أصول الدين؛ ففي "وهم الإله" يتحدث دوكينز عن الميمات، كما لو كانت عقيدة علمية راسخة، دون الإشارة إلى الحقيقة المزعجة، التي ينظر إليها المجتمع العلمي السائد باعتبارها فكرة متقلبة، كما أنه لا يواجه حجج ومخاوف النقاد البارزين للميمات داخل المجتمع العلمي ولا يُقَيّم أهميتها.[2]

إلا أنَّ كلاً من فكرة الميم، وتأثيرها المزعوم على المعتقدات الدينية، غير مثبتين علمياً، ولم يوضعا حتى في نموذج قابل للإثبات أو الدحض العلمي؛ مما فتح على دوكينز تهمة أن مثل هذا الاعتقاد بالميمات، هو في حدّ ذاته شكل من أشكال "الإيمان الأعمى".[3]

وهذا الفشل للدليل التجريبي عن الميمات، يضع دوكينز في موقف صعب إلى حدّ ما، من الاضطرار إلى اللجوء إلى استخدام لغة التأكيد والعدوانية في الخطاب؛ للتغطية على الأسس الإثباتية الغير كافية بشكل واضح.[4]

ولتأكيد هذه الصعوبة التي يواجهها نهجه، يمكننا النظر في تصريحه الجريء: "الميمات يمكن أن تُظهر في بعض الأحيان دقةً عالية جداً"، فهو تصريح دوغمائي يتظاهر بأنه بيان للحقيقة العلمية؛ فما يقوم به دوكينز هنا هو إعادة تأكيد الملاحظة بلغته النظرية الخاصة، والتي لا يتحدث بها في أي مكان آخر داخل المجتمع العلمي.

---

[1] حتى أن دوكينز قادر على تطوير مفردات متقدمة بناءً على قناعاته الخاصة مثل: "memeplex"، أي مجموعات من الميمات تسمى مركبات الميم، أو الميمات. مثل المجمعات الجينية الموجودة في علم الأحياء. انظر: دوكينز، الجين الأناني، 320.

[2] See: Alexander and Numbers, Biology And Ideology, 347. and Macgrath, Darwinism And The Divine, 261.

[3] انظر: المرجع السابق، 261-262.

[4] انظر: المرجع السابق، 262.

والملاحظة هي أنَّ الأفكار يمكن أن تنتقل من فرد أو مجموعة أو جيل إلى آخر؛ لكنَّ تفسير دوكينز النظري لهذه الملاحظة – والذي يُقدَّم في كتاباته على أنَّه حقيقة – ينطوي على نسبة صحته إلى ما يعتبره معظمهم كياناً غير موجود.[1]

ونظراً لعدم وجود أدلة علمية دامغة على هذه الكيانات، فقد خَلُصَ بعض الكُتَّاب وبشكل هزلي إلى أنه قد يكون هناك حتى ميم للاعتقاد بالميمات.[2]

والجدير بالذكر هنا أن "جوزيف بولشوك"، وفي دراسته الدقيقة لدور "الميم" في أشكال الإلحاد المستوحاة من "الداروينية العالمية"، يشير إلى أن جاذبية الميم في النقاشات حول الله هي في الأساس دائرية، فيقول:

"إذا كان بوسع المرء أن يقترح تفسيراً داروينياً مفاده أنَّ: الإيمان بالله (A1) قد تطور كسمة غير متكيّفة، وأنَّ الداروينية (A2) تُظهر أنَّ الاعتقاد الإيماني لا يتوافق مع الواقع، فيمكن للمرء أن يقول بسهولة في الطريقة الداروينية بأنَّ الإيمان (B1) تطور كسمة تكيفيّة، وأن بعض ميمات الله (B2) تتوافق مع الواقع، مما يدعم فكرة وجود الله.[3]

الخاتمة

لقد كانت الميمات بالنسبة لمنتقديها بدعة عابرة، اقتصر تأثيرها على التعتيم أكثر من التبصير بآليات النقل المعلوماتي، ومع ذلك يبدو دوكينز متردّداً في الاعتراف بعدم قابلية الميمات للتصديق،[4] وعلى الرغم من هجرها الواسع في العلوم السائدة، فإنَّ الميم لا تزال قائمة في دائرة واحدة هي "الإلحاد الجديد"، وبالفعل فقد أصبحت أحد أهم الأسلحة في نقد الحركة للدين؛ حيث يُعزى الإيمان بالله بانتظام إلى العمليات الميمية داخل الكتابات التقليدية لـ "الإلحاد الجديد"، والذي يمثّل الصورة النموذجية للدارونية العالمية.

---

[1] See: Alexander and Numbers, Biology And Ideology, 347-348. and Macgrath, Darwinism And The Divine, 259-260.

[2] See: Alexander and Numbers, Biology And Ideology, 349. And Macgrath, Darwinism And The Divine, 258-259.

[3] المرجع السابق، 260.

[4] Alexander and Numbers, Biology And Ideology, 347.

النتائج

من خلال ما تقدَّم يمكن أن نستخلص ما يلي:

- تستند قضية وجود "الميم" إلى افتراض مشكوك فيه، بوجود تشابه مباشر مع الجين، مما يثبت أنَّه غير قادر على تحمل العبء النظري الذي يوضع عليه.
- لا يوجد أي داعٍ لافتراض أنَّ التطور الثقافي هو دارويني، أو أنَّ البيولوجيا التطورية لها بالفعل أي قيمة خاصة في تفسير تطور الأفكار.
- لا يوجد دليل مباشر على وجود "الميمات" أنفسها.
- لا يوجد دليل تجريبي على أنَّ الأفكار هي فيروسات، ربما تبدو الأفكار وكأنها "تتصرف" في نواحٍ معينة كما لو كانت فيروسات، لكن هناك فجوة هائلة بين التشابه والتماثل، وكما يوضح تاريخ العلم، فإنَّ معظم المسارات الزائفة في العلم تدور حول المقارنات المفترضة خطأً على أنَّها تطابقات.
- ليس هنالك سبب ضروري لاقتراح وجود "الميم" كبنية تفسيرية، ويمكن تفسير البيانات المشاهدة بشكل جيد من خلال النماذج والآليات الثقافية الأخرى.

المراجع

- أونجر روبرت، 2005م – الثقافة من منظور دارويني. ترجمة: شوقي جلال، الطبعة الأولى، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، 307 صفحات.
- دوكينز ريتشارد، 2009م – الجين الأناني. ترجمة: تانيا ناجيا، الطبعة الأولى 2009م، دار الساقي، 440 صفحة.
- روزنبرغ أليكس، 2011م – فلسفة العلم، ترجمة: أحمد السماحي وفتح الله الشيخ، الطبعة الأولى، المركز القومي للترجمة، القاهرة، 371 صفحة.
- ستاموس دافيد، 2014م – التطور والأسئلة الكبرى. ترجمة: عزت عامر، الطبعة الأولى، المركز القومي للترجمة، القاهرة، 443 صفحة.
- عبود منى، 2008م – الميمياء. الطبعة الأولى، بيسان للنشر، بيروت، 576 صفحة.
- أونجر روبرت ضمن كتاب ريتشارد دوكينز عالم غير أفكارنا

-ALEXANDER Denis and NUMBERS Ronald., 2010 - Biology And Ideology. The University of Chicago Press, London, 453 p.
-MCGRATH Alister., 2011 - Darwinism And The Divine. Wiley-Blackwell, 1st ed, 298 p.